

عدد خاص بالملتقى الدولي

(العلوم الإسلامية من الرصيد التاريخي إلى التفعيل الحضاري)

الوظيفة الحضارية للمنظومة المعرفية الإسلامية

(رؤية المدرسة الحضارية)

**The civilizing function of the Islamic knowledge system
(Vision of the Civilization School)**

د. مراد قمومية*

وزارة التربية الوطنية - الشلف (الجزائر)

mouradkamoumia@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/05/06 تاريخ القبول: 2022/07/02 تاريخ النشر: 2022/11/30

ملخص:

يتمركز البحث حول صياغة الوظيفة الحضارية للعلوم الإسلامية في ظل دور الفكرة الدينية لدى المدرسة الحضارية باعتبارها قدمت نقداً مميزاً فسرت من خلاله أسباب عدم تمكن العلوم الإسلامية من صناعة البناء الاجتماعي الضروري للانطلاق في مسار بناء الحضارة. ويكشف عن العوامل التي تَحْجُب الحضور النوعي للمنتج البشري للعلوم الإسلامية، سواء المتخرج من المعاهد أو المتكُون ضمن تنظيمات الحركات الإصلاحية. وتمنعه من الارتقاء إلى الفاعلية الحضارية المثلى ضمن حركية المجتمع واحتياجاته. ويعرج على تحليل التحديات التي تواجهها المنظومة المعرفية الإسلامية من وجهة حضارية من أجل فك الأقفال المانعة من أداء دور ريادي فاعل ضمن حركة المجتمع. ويناقش إشكالات الرصيد المعرفي لاسترجاع البعث الحضاري. وكي تساهم العلوم الإسلامية في التفعيل الحضاري عليها أن تعمل على صياغة منظومة معرفية منسجمة، تُقَدِّم من خلالها الأفكار العملية الأصيلة والرائدة المستمدة من الوحي بأسلوب مركّز وقوي يتناسب مع احتياجات الواقع العملي في حاضره وفي وجهته نحو المستقبل.

* المؤلف المرسل: دكتوراه العلوم الإسلامية من جامعة الجزائر 1، أستاذ التعليم الثانوي بالشلف.

حيث تقوم بمراجعات تستجلي الفكرة الدينية الإسلامية في نسق معرفي منسجم مع منظومة القيم في القرآن الكريم ومفاهيمه الكبرى المؤسّسة للصورة الكلية عن الإسلام ورسالته، لتستعيد بها الوظيفة الاجتماعية للدين.

وكي تساهم العلوم الإسلامية في التفعيل الحضاري عليها أن تعمل على صياغة منظومة معرفية منسجمة، تُقدّم من خلالها الأفكار العملية الأصيلة والرائدة المستمدة من الوحي بأسلوب مرّكز وقوي يتناسب مع احتياجات الواقع العملي في حاضره وفي وجهته نحو المستقبل. حيث تقوم بمراجعات تستجلي الفكرة الدينية الإسلامية في نسق معرفي منسجم مع منظومة القيم في القرآن الكريم ومفاهيمه الكبرى المؤسّسة للصورة الكلية عن الإسلام ورسالته، لتستعيد بها الوظيفة الاجتماعية للدين.

ومن المجالات المحورية التي تحتاج إلى أن تتغيّر نظرة الإنسان إليها ويمكن للعلوم الإسلامية أن تؤدي دورا مركزيا فيها؛ نظرتة للأخرة، ونظرتة للإنسان، ونظرتة للتراب (للطبيعة والعلم)، ونظرتة للوقت.

الكلمات المفتاحية: الوظيفة الحضارية، المنظومة المعرفية الإسلامية، العلوم الإسلامية، المدرسة الحضارية، الفكرة الدينية.

Abstract:

The research attempts to formulate the civilizational function of Islamic sciences in light of the role of the religious idea, and to reveal the reasons why Islamic sciences are unable to achieve the social construction necessary for construction. It analyzes the challenges it faces, and discusses the problems of knowledge balance to restore the civilizational revival.

Where Islamic sciences contribute to civilized activation through the formulation of a coherent knowledge system, based on revisions that bring back the original religious idea in order to restore the social function of religion.

Among the pivotal areas that need to change the human outlook; His view of the afterlife, his view of man, his view of nature and science, and his view of time.

Keywords: Civilizational function, Islamic knowledge system, Islamic sciences, civilizational school, religious idea.

مقدمة:

تعيش العلوم الإسلامية نوعاً من العزلة أو التحييد عن تأطير المجتمع وبناء الصلّات الضرورية بين أفرادها، وتحضيره لاسترجاع حركته الحضارية. فكيف السبيل لاسترجاع وظيفة العلوم الإسلامية ودورها الريادي في تثوير الفاعلية والبناء الاجتماعي للمساهمة في حركة المجتمع نحو النهضة؟

يقاس نجاح العلوم الإسلامية بدايةً بنوعية المنتج البشري الذي تنتجه، وإذا أخذنا على سبيل المثال الدُفع المتخرجة من كليات العلوم الإسلامية كل عام؛ كم هي نسبة المتخرجين الذين أخذوا كفاية من الوعي الشمولي بالإسلام الذي يؤهل صاحبه لأداء دوره الرسالي في المجتمع في سياق فعالية حضارية؟ وهل يؤدون هذا الدور فعلاً بعد تخرجهم؟ وهناك حركات إصلاحية (منظمات، جمعيات، جماعات، أحزاب...) تنشط في الواقع تعتمد على المنظومة المعرفية الإسلامية في تكوين أتباعها وتخطيط حركتها ومواقفها، ما الذي يجعلها بعيدة عن طرح مشروع متمكن من دفع المجتمع للانخراط في الفاعلية الحضارية من منطلق رسالة الإسلام؟

لماذا لا نلمس حضور نوعية المنتج البشري للعلوم الإسلامية في الحركية الاجتماعية والمواقف الريادية التي يحتاج الناس فيها التبصرة والقدوة والقيادة ولو في شكلها الروحي المعنوي. إذ بمجرد أن يتخرج من جامعة أو كلية العلوم الإسلامية كأنه يتعرض لعملية ذوبان أو اضمحلال داخل المجتمع؟ أما المنخرط في التنظيمات والجماعات فما يلبث أن ينغلق على جماعته ويختصر رسالة الإسلام في مشروع التنظيم الذي ينتهي إليه؟

سنحاول في هذا البحث صياغة الوظيفة الحضارية للعلوم الإسلامية في ظل دور الفكرة الدينية لدى المدرسة الحضارية عامة وعند مالك بن نبي خاصة، باعتباره قدم نقداً مميزاً فسّر من خلاله أسباب عدم تمكن العلوم الإسلامية من صناعة البناء الاجتماعي الضروري للانطلاق في مسار النهضة وبناء الحضارة.

وسنعمل على تحليل التحديات التي تواجهها المنظومة المعرفية الإسلامية من وجهة حضارية، من أجل فكّ الأقفال المانعة من أداء دور ريادي فاعل ضمن حركة المجتمع. ونناقش إشكالات الرصيد المعرفي (التراث/ أو الخبرة المعرفية) في سياق تحليلات المدرسة الحضارية باعتبارها مدرسة تعمل على استجلاء وظيفة الدين وعلومه لاسترجاع البعث الحضاري.

1- دور الفكرة الدينية في البناء الاجتماعي:

1-1- عناصر تركيب الحضارة:

بالاستناد إلى تحليلات مالك بن نبي فإن كل حضارة تتركب من الثلاثية البسيطة التي يمتلكها باستمرار جميع المجتمعات البشرية على وجه الأرض، ألا وهي: الإنسان والتراب والوقت⁽¹⁾.

- التراب: يعبر عن الموارد المادية التي توفرها الرقعة الجغرافية التي يعيش فيها الأفراد المتشاركون فيها، ويستمد التراب قيمته الاجتماعية من قيمة مالكيه، (فحينما تكون قيمة الأمة مرتفعة، وحضارتها متقدمة يكون التراب غالي القيمة، وحيث تكون الأمة متخلفة... يكون التراب على قدرها من الانحطاط)⁽²⁾.

- والوقت: مورد معنوي متوفر على السواء في أرض كل شعب، ويكتسب أهميته من الطريقة التي يستعمله بها الإنسان، فهو يصير ثروة إذا ما عمّره بالأعمال والإنجازات المناسبة للسير في طريق الحضارة، ويصير عدماً إذا ما غفل عنه ولم يشعر بأهميته⁽³⁾.

- والإنسان: هو العامل الفاعل الذي يتحرك في الوقت ليحرك الموارد المادية في اتجاه صناعة الحضارة.

وهذه العناصر الثلاثة لا تشتغل في حالة شتية، إذ لا بد أن تندمج في شكل تركيب عضوي فاعل ومطرّد، لذلك هي تحتاج إلى عنصر آخر لإحداث ذلك تركيب عضوي الضروري، ألا وهي (الفكرة الدينية) التي تبني جوهر الإنسان، وتؤسس شبكة علاقاته الاجتماعية، وتمنحه وعياً مناسباً لتكثيف التراب واستثمار الوقت لبدأ رحلته في التاريخ.

ونقطة الانطلاق في تاريخ مجتمع ما يتفق في الحقيقة مع ظهور فكرة دينية⁽⁴⁾، والفكرة الدينية هي فكرة مستوحاة من الدين، تُجيد استثمار تعاليمه السامية المتجهة نحو تخليص الإنسان من النزوع المادية والفردية، وتدفع به إلى النزوع الروحية والجماعية دون أن تفصله عن الواقع والحياة. أي هي تلك التي تهذب من الأنانية والركون إلى المصلحة الخاصة، وتدفع به إلى العطاء والتعاون مع أخيه الإنسان للمصلحة العامة وللمصير المشترك

(1) ينظر مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصبور شاهين، ص 29، 55.

(2) مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 131.

(3) ينظر المرجع نفسه، ص 139.

(4) ينظر مالك بن نبي: ميلاد مجتمع ص 55.

2-1- الفكرة الدينية والعلوم الإسلامية:

الدين هو ما أنزله الله وحيا من السماء، وفي الرسالة الخاتمة: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْلَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ١٩ ﴾ [آل عمران: 19]، أي التي جاء بها القرآن⁽¹⁾، وأصوله آيات القرآن المتلوة والمدونة بالمصاحف، والسنة الصحيحة مكتملة بالبيان تفسيرا وتفصيلا وتوسيعا.

وتسمية العلوم الدينية أو العلوم الشرعية جاءت نسبة إلى الدين أو إلى الشريعة، قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ١٣ ﴾ [الشورى: 13]، وقال سبحانه: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذُرْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١١ ﴾ [الشورى: 21]، وقال أيضا جلا وعلا: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ١٨ ﴾ [الجاثية: 18]، "والشريعة: الدين والملة المتبعة، مشتقة من الشرع وهو: جعل طريق للسير"⁽²⁾.

والشريعة والملة والدين بمعنى واحد، وهو ما شرعه الله لعباده من أحكام؛ وهي تسمى شريعة باعتبار وضعها وبيانها واستقامتها، وتسمى دينا باعتبار الخضوع لها وعبادة الله بها، وتسمى إسلاما باعتبار أن الاستسلام لله تعالى يكون عبرها⁽³⁾.

وعلى هذا الاعتبار فالعلوم الشرعية أو العلوم الدينية أو العلوم الإسلامية هي ما نتج عن المؤهلين-الذين حصلوا أدوات الاجتهاد للاقتراب من نصوص الدين- بالشرح والتفسير والاستنباط والاستقراء والتفعيل، أيما انبثق عن فهم نصوص الشريعة (القرآن والسنة) من علم، مثل تفسير القرآن وشرح الأحاديث النبوية والعقيدة والتزكية والفقهاء وسنن النهوض والنكوص وفقه السيرة ومقاصد الشريعة... ويضاف إليها علوم الآلة وهي العلوم المستعملة لحفظ أو للاقتراب من نصوص الوحي مثل اللغة العربية وأصول الفقه والمنطق ومصطلح الحديث والجرح والتعديل والقراءات القرآنية وأصول التفسير.

(1) ينظر: محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، 3/ 188.

(2) الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، 25/ 348.

(3) ينظر: عبد الكريم زيدان: المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، ص 39.

وقد اختار أبو حامد الغزالي تسمية كتابه (إحياء علوم الدين) في إشارة منه إلى أن (العلوم الدينية) غير (علوم الدين)؛ فعلوم الدين حسب مضمون الكتاب تتعلق بما ينبني عليه عمل ديني مباشر يربط بين المخلوق وخالقه، وله أبعاد وظيفية اجتماعية في الواقع، أما العلوم الدينية فتشمل ذلك وغيره من العلوم والمضامين المتوسعة في إنتاج المعارف والمناهج.

واختار مالك بن نبي استعمال مصطلح (الفكرة الدينية) ليوضح وظيفة الدين في بناء الفرد والمجتمع وتحقيق النهوض الحضاري؛ على أن الفكرة الدينية هي جوهر علوم الدين، أي كل فكرة مأخوذة من القرآن الكريم أو السنة النبوية مدارها على إنتاج العمل والحركة في المجتمع.

وكل فكرة تخدم علوم الدين تدخل في مجال العلوم الدينية بصفة عامة، والعلوم الدينية الإسلامية على ضرورتها وأهميتها تبقى مكانتها في الصف الثاني بعد علوم الدين، لأنها لا تستطيع بذاتها وحدها تغيير النفس وإنتاج وتوجيه حركة المجتمع في التاريخ، ولكنها ضرورية من حيث ضبط الفهم والاستنباط والمقارنة والترجيح وتحقيق المناط بين النص والواقع.

والعلوم الإسلامية أو الدينية أو الشرعية ضرورة معرفية ومنهجية، والمدارس أو المذاهب المنبثقة عنها ضرورة اجتماعية وتاريخية، لا يمكن تجاوزهما دون الإضرار بعلوم الدين، فمن خلال العلوم الإسلامية تتمهد الطريق للفكرة الدينية لتتلاصق ضمير الفرد وتكيفه تكييفاً يتناسب مع وظيفته الحضارية؛ إذ تحوِّله من فرد مقتصر على اشباع غرائزه الطبيعية إلى شخص ذو نزوع جماعية (أخلاقية وجمالية).

وقد حدّث عبر التاريخ أن تورمت العلوم الدينية (العلوم الإسلامية) وتوسعت على حساب (علوم الدين)، لا سيما بداية من عصر الضعف إلى العصر الحديث، وأثر هذا التورم بأن ضُيِّع الدِّين الممثل في الواقع، فأحياء العلوم الدينية وتحصيلها لا يغني عن إحياء علوم الدين، والمقصود بالإحياء هنا في الذات والواقع أي في سياق حركة التاريخ.

والحضور المكثف اليوم في الواقع أصبح للعلوم الدينية (الإسلامية) بصورة مترفة على حساب علوم الدين، فوظيفة العلوم الدينية تمكين علوم الدين من أداء وظيفتها في الذات والمجتمع، بينما أصبحت بتوسعها وتورمها صارفة ومُشغلة عنه، وبدل أن تكون عوناً أضحت عبئاً، والاستزادة منها في كثير منه لا يكون سوى نوعاً من الترف الفكري والتكديس

المعرفي، الذي يجعل الإنسان يغرم بالمعلومة ويحولها إلى متاع فكري لا ينتج عملاً، ولا يحرك حياة⁽¹⁾.

فعلوم الدين مبناها على تحقيق الجوانب العملية للدين (الأبعاد الوظيفية النفسية والاجتماعية)، وعلى العلوم الإسلامية بما توفره من معرفة أن تنتظم في شكل منظومة معرفية تكاملية تتمحور حول استرجاع وظيفة الفكرة الدينية لدورها الاجتماعي حتى يتيمم الواقع للتفعيل الحضاري.

3-1- وظيفة الفكرة الدينية في التفعيل الحضاري:

التفعيل الحضاري: يعبر عن ارتقاء عملية التوتر الداخلي الفردي والمجتمعي إلى مستوى امتلاك القدرة على مواجهة تحديات التخلف، والانطلاق في عملية النهوض والتحضر. والفعالية الحضارية يقصد بها: امتلاك "الاقتدار التسخيري المتزايد، الذي يمكن المجتمع من استثمار (ميزانيته التسخيرية) بدقة وشمول وتوازن، في مواجهة تحديات الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد"⁽²⁾.

وينطلق التفعيل الحضاري من المزج بين العوامل الأساسية الثلاثة: الإنسان، والتراب، والوقت. والفكرة الدينية هي العامل الضروري للمزج بين هذه المكونات الثلاثة لتتألف منها حالة انطلاق نحو الحضارة⁽³⁾.

"فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء، يكون للناس شرعة ومنهاجا، أو هي- على الأقل- تقوم أسسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي بالمعنى العام، فكأنما قدر للإنسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية، أو بعيداً عن حقيقته إذ حينما يكتشف حقيقة حياته الكاملة، يكتشف معها أسعى معاني الأشياء التي تهيمن عليها عبقريته، وتتفاعل معها"⁽⁴⁾.

ولكي تحقّق الفكرة الدينية عملها الاجتماعي لا يكفي أن تصاغ صياغة صحيحة ثم تبقى حبيسة عالم الأفكار النظري المجرد، بل لا بد أن تندرج ضمن عالم الأفكار المحقّق في الواقع (أو المعبر عنها في ممارسات وأنشطة أفراد المجتمع)، أي بعبارة أخرى أن تؤثر على نشاط المجتمع الفردي والجماعي.

(1) ينظر مالك بن نبي: القضايا الكبرى، ص 68.

(2) الطيب برغوث: الفعالية الحضارية والثقافة السنية، ص 30-31.

(3) ينظر مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 50، 60.

(4) مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 51.

و(يصاب النشاط بالشلل عندما يدير ظهره للفكرة، كما تصاب الفكرة بالشلل إذا ما انحرفت عن النشاط، لكي تمضي في طريق اللهو والعبث)⁽¹⁾. وعلى هذا الأساس تندرج الفكرة الدينية في عملية التفعيل الحضاري عبر ثلاث عمليات جوهرية:

1- التأسيس الصحيح للفكرة الدينية الإسلامية الأصيلة. وتمييزها عن بديلاتها المحرّفة أو المزوّرة أو الدخيلة أو القاصرة.

2- فهم احتياجات الواقع المتحرك باستمرار، ومتابعة مستجدات حركته.

3- إدراج الفكرة الدينية الأصيلة ضمن حركة المجتمع حسب احتياج الواقع. وترسيخها في الثقافة المتداولة داخل الوسط الاجتماعي التلقائي.

ولا يمكن استرجاع الفكرة الدينية الأصيلة ضمن حركة المجتمع سوى باسترجاعها ضمن حركة الأنفس حين تطبع الفرد بطابعها الخاص وتوجهه نحو غايات سامية⁽²⁾، ويتحول من خلالها الفرد؛ من الفرد المستجيب لطبعه الغريزي إلى الفرد المستجيب لتعاليم مقدسة وسامية. وهو الفرد الذي يسميه مالك بن نبي (الفرد المشروط أو المكيف)⁽³⁾. أي صَنَعَتْ منعكساته الشَّرْطِيَّة الفكرة الدينية بعدما كَيَّفَتْه بهذيب طبائعه الفطرية الغريزية، بحيث صارت سلوكاته التلقائية تصدر عنه استجابة للقيم التي تَأَطَّرَ بها وعيه وتزكَّتْ بها نفسه.

والفكرة الدينية تؤدي دورها الاجتماعي ما دامت معبّرة في ذاتنا العملية عن نظرنا إلى ما بعد الأشياء الأرضية، أي بقدر ما تكون متمسكة بقيمتها الغيبية⁽⁴⁾ (أي بالبعد الأخروي). ولا يمكن أن تتغير الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للمجتمع (أي الوضع الحضاري بشكل عام) إلا عندما يغيّر الفرد ما بنفسه⁽⁵⁾؛ فيرفع عنه الجهل، ويتصفي من القابلية للاستعمار⁽⁶⁾، ويؤسس شبكة علاقاته الاجتماعية⁽⁷⁾، وينخرط في الغايات الكبرى للمجتمع وفي نشاطه المشترك⁽⁸⁾.

(1) مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص 69.

(2) ينظر مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 50.

(3) ينظر مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص 65.

(4) ينظر مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 14.

(5) ينظر مالك بن نبي: دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، ص 58-59.

(6) ينظر في مفهوم القابلية للاستعمار: مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 152-153.

(7) ينظر مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص 28.

(8) ينظر مالك بن نبي: بين الرشاد والتهيه، ص 83 / ومالك بن نبي: القضايا الكبرى، ص 94، 89، 110.

وكذلك هو الأمر في كل مرحلة تنتكس فيها الروح الأخلاقية، وتضعف فيها أو تتمزق شبكة العلاقات الاجتماعية، وينسحب الفرد من الانخراط في الغايات الكبرى للمجتمع راكنا إلى شأنه الخاص، لا بد من عملية إصلاح تستند إلى الوعي، وتسترجع التدين الواعي الذي يراعي الوظيفة الاجتماعية للدين من أجل رفع منسوب الوعي والأخلاق في المجتمع، وإعادة ربط الصِّلات بين أفرادها، ورفع وعيهم لإدراكهم متطلبات النهضة وضرورات التحضر.

وتكون للفكرة الدينية في هذه المهمة أهمية حقيقية من حيث كونها مرشحة لتقدم تصورا صحيحا عن الدين، تصورا يستصحب ويستثمر وظيفته الاجتماعية لاستعادة وتكميل القيم والأخلاق المتداولة في الوسط، ولتثوير دافعيته الروحية للعباء الخيري الخلاق.

أما إذا انحرفت الفكرة الدينية على مستوى التصور أو على مستوى التمثيل فإنها تعمل بشكل عكسي، ضد متطلبات النهضة، بل تصبح عائقا يكبل الطاقات الاجتماعية عن الانطلاق الحضاري.

2- العلاقة الوظيفية للعلوم الإسلامية بالفكرة الدينية:

الدين -لا سيما في المجتمع المسلم- هو أقوى محرك لطاقة الإنسان إذا ما توازن إيمانه بين عالم الغيب وعالم الشهادة⁽¹⁾، ويمكن للدين أن يكون أيضا أقوى مكبل للانطلاق إذا استبدلت أفكاره الأصلية الحية الرائدة بأخرى قاصرة أو مزيفة أو محرفة تلبس لباس أفكاره الأصلية.

تتصل الفكرة الدينية بالإنسان عبر مجموعة العلوم الإسلامية التي تقوم بدورها في البناء الفكري والوجداني والسلوكي للإنسان والمجتمع، فهي بمحتواها ووظيفتها إما أن تكون المؤسس للمنظومة الفكرية والسلوكية الصحيحة للدين، بما يجعل الأفراد والمجتمع ينخرطون في الفعل الحضاري، وإما تتخلف عن الواقع أو تُقَدِّم له في صورة منحرفة أو مشوهة، فَيُسَجَّلُ بذلك فهم الدين في الأنفس بصورة مشوهة أو قاصرة أو منحرفة أو باردة، فتتعطل وظيفة الدين مع الإنسان، وعلى إثرها يخرج من الدورة الحضارية. فهو قد فقَدَ مع التسجيل الخاطئ للفكرة الدينية في ذاته الشرارة القادحة التي تؤلف بين عناصر الحضارة.

(1) ينظر جودت سعيد: فقدان التوازن الاجتماعي، ص36 وما بعدها.

ولكي ننجز عملية التفعيل الحضاري لا بد أن نحل مشكلات التركيب العضوي الثلاثة (الإنسان والتراب والوقت)⁽¹⁾. حيث يعتبر الإنسان محور هذه المشكلات الثلاثة؛ فالتراب والوقت عاملان لا يتغيّرُ معنهما ولا قيمتهما من خلال ذاتهما، وإنما من خلال نظرة الإنسان إلى ذاته وإلهما، وهنا يأتي دور ووظيفة العلوم الإسلامية باعتبارها الحامل والمفسّر للفكرة الدينية المعول عليها في إنشاء التفعيل الضروري داخل الإنسان وبينه وبين التراب والوقت. ومشكلات التخلف في كل عصر متعلقة بالإنسان في جانب تكوينه الفكري والروحي والسلوكي، وبكيفية صياغته ليكون مؤهلاً لصناعة الحضارة، فما الذي ينبغي للفكرة الدينية أن تمنحه للإنسان، وتشتغل من أجله تبعاً لذلك العلوم الإسلامية حتى ينخرط في الفعل الحضاري من جديد؟

هناك مجالات ما تزال رغم المراجعات تحتاج إلى صياغة جديدة منسجمة مع الفعل الذي يدخل في التركيب الحضاري. والدور المطلوب من العلوم الإسلامية في هذا المقام؛ أن تجلي الفكرة الدينية في مستواها الأصيل، وتشتغل على تغيير نظرة الإنسان إلى جملة مفاهيم محورية في تركيب الحضارة، حتى يتمثلها عن وعي خلال ممارساته اليومية في سبيل التفعيل الحضاري.

فكل تغيير اجتماعي يأتي من تغيير الإنسان، وتغيير الإنسان يستند إلى تغيير المحتوى الثقافي المتداول⁽²⁾، أي جملة الأفكار والسلوكيات والعادات والظواهر التي تتكرر أمامه في محيطه الذي يكتسب منه فكره وسلوكه وشخصيته، فإذا أردنا تغيير المحتوى الثقافي السائد لا بد من القيام بعملية تدافع للأفكار، تتدافع فيها الأفكار الرائدة المنتجة للفعالية والأشواق الحضارية مع الأفكار المكرّسة للخمود والتخلف، حتى تزيحها وتأخذ مكانها في تشكيل الثقافة المتداولة في الوسط الاجتماعي.

وإذا أردنا أن تساهم العلوم الإسلامية في التفعيل الحضاري عليها أن تعمل على صياغة منظومة معرفية منسجمة، تقدّم من خلالها الأفكار العملية الأصيلة والرائدة المستمدة من الوحي بأسلوب مرّكز وقوي يتناسب مع احتياجات الواقع العملي في حاضره وفي وجهته نحو المستقبل.

(1) ينظر مالك بن نبي: شروط النهضة، ص45.

(2) ليس المقصود تغيير كل المحتوى الثقافي وإنما يكفي تغيير ما يكرس منها التخلف والتبعية والخمود والعزلة الاجتماعية، من أجل تكميل ما ينقص المجتمع من أفكار منتجة للفعالية.

ومن المجالات المحورية التي تحتاج إلى أن تتغيّر نظرة الإنسان إليها، ويمكن للعلوم الإسلامية أن تؤدي دورا مركزيا فيها؛ نظرته للأخرة، ونظرته للإنسان، ونظرته للتراث (للطبيعة والعلم)، ونظرته للوقت.

1-2- نظرة المسلم لإنقاذ آخرته:

هل الإنسان المسلم المعاصر اليوم في سعيه لإنقاذ آخرته يتمثل الدين باعتباره عامل حركة وإنتاج ونهضة وحضارة، أم يتمثله بطريقة تدفعه للانسحاب من المجتمع أو للعيش بشخصية منفصمة بين الآخرة والدينا؟ وهل يفهم قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: 56] بمعنى يحوّل حركته على الأرض في شتى شعاب الحياة إلى عبادة يستشعر فيها الرقابة الإلهية «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»⁽¹⁾ فينتقل إلى الإحسان ويتحراه في جميع الميادين؟ أم يختصر مفهوم العبادة في الشعائر التعبدية والذكر وتلاوة القرآن وشيء من الصدقات، وبعض الممارسات الاجتماعية الضيقة؟

فقد شاعت في الخطاب الديني -لا سيما المرتكز على الوعظ والتزكية- نَسَخ من الأفكار الدينية تقدّم الدين كعامل للانسحاب من الفعل الاجتماعي والسياسي والاقتصادي... والحضاري. وهذه من أخطر المضامين التي تحتاج إلى مراجعة وتعديل وتصويب.

ولا يمكن أن نبني حضارة بإنسان مكتف بإنقاذ آخرته (عالم الغيب) على حساب أدائه وحضوره في (عالم الشهادة)⁽²⁾. بينما كما يذكر مالك بن نبي: "جاءت كلّ الديانات -وأعني هنا جميع المفهوميّات الدينية- لترويض الطاقة الحيويّة للإنسان، وجعلها مخصّصة للحضارة. وبناءً على ذلك يضع الدين الحرية الفردية بين حدود عمل المجتمع، ومقتضيات الحرية الخاصة بهذا المجتمع"⁽³⁾.

ويبدو أن المسلم اليوم تحت ضغط الواقع ما يزال يفقد شيئا من توازنه؛ "إن الإنسان الذي فقد مسوغ عيشه في المجتمع يترك المجتمع كما يترك أي إنسان الوظيفة التي لم يعد لديه مسوغ للتعلق بها"⁽⁴⁾، فهو غالبا لا يشعر بأنه يحمل شيئا يحتاج العالم إليه⁽⁵⁾.

(1) صحيح البخاري: كتاب الإيمان، رقم 50، 19/1.

(2) ينظر جودت سعيد: فقدان التوازن الاجتماعي، ص 37.

(3) مالك بن نبي: القضايا الكبرى، ص 110.

(4) جودت سعيد: فقدان التوازن الاجتماعي، ص 12.

(5) ينظر المرجع نفسه، ص 14.

وإذا تأملنا الواقع المعاصر لاحظنا أن المسلم على الغالب أصبح يبتغي الدار الآخرة بالاعتصار على الشعائر التعبدية أو العبادات المحض، بل أصبح الحرص على النوافل أولى من اتقان الوظائف والمهن والأعمال الاستزاقية، ولم يرتق الوعي الثقافي الواقعي إلى النظر إليها باعتبارها فروضا كفائية، لا سيما وهي العلوم التي تتجلى من خلالها المنجزات الحضارية.

هناك انفصام بين العلوم الدينية وعلوم الدنيا، لم يعد مصطلحي (العلم والعلماء) المذكور في القرآن في مثل قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَعْمَىٰ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۝٢٨ ﴾ [فاطر: 28] يُقدِّم ميدانيا على أنه مفهوم يشملهما معا⁽¹⁾، هناك خلل في الخطاب، فجانب واسع منه يركز على أن المقصود بالعلم في نصوص الوحي فقط العلوم الدينية، أما بقية العلوم الدنيوية التجريبية والإنسانية التي لا يمكن إنشاء العمران والحضارة بدونها فهي داخلية في جملة تحصيل ما ينفع دنيا لا ما ينقذ أخرويا أصالة، وأُخرجت بذلك من دائرة العلوم المقصودة في نصوص الوحي⁽²⁾.

وتقلص تبعا لذلك مفهوم العمل الصالح الذي يشترط به القرآن النجاة⁽³⁾ في مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ۝١١٦ ﴾ [الكهف: 110]، وكثيرا ما يغيب عن الأذهان أن العمل الصالح الذي ذكر في القرآن بصيغة (الصالحات) حوالي (61 مرة) يشمل كل مجالات الحياة، ولا يقتصر على ما عُرف في كتب الفقه بباب العبادات، ويُخرم تبعا لذلك المجتمع المسلم عمليا من اندراج سائر العلوم والتخصصات في الأعمال الصالحة الجليلة والتعبدية أصالة، والتي دورها مباشر في تطوير المجتمع وتحقيق نهضته.

2-2- نظرة الإنسان للإنسان: نظرت له لذاته وللآخرين (المسلم وغير المسلم)

وهذا الوعي يأتي من نظرت له إلى الكرامة الوجودية للإنسان؛ هل هي محترمة ومعتبرة ومعبر عنها في الممارسة اليومية في شتى شعاب الحياة؟

(1) ينظر جاسم سلطان: التراث وإشكالياته الكبرى، ص 154 وما بعدها.

(2) من نماذج تجلياته في أدبياتنا غني عديد المشايخ والعلماء بالبيتين المنسوبين إلى الشافعي:

كل العلوم سوى القرآن مشغلة *** إلا الحديث وعلم الفقه في الدين

العلم ما كان فيه قال حدثنا *** وما سوى ذلك وسواس شياطين.

(ينظر محمد بن إدريس الشافعي: ديوان الإمام الشافعي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان 1428هـ-2007م، ص 80).

(3) ينظر المرجع نفسه، ص 157.

القرآن الكريم ينص صراحة على مكانة الإنسان الكونية: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70].
فالإسلام بهذه الآية يحوط الإنسان من الانتقاص ويجعله محترماً في عيني أخيه الإنسان، إنه يأتي بهذا السبب السامي الذي يفرض احترامه مهما كان لونه، وجنسه، وقوميته، واعتقاده. وهو يضع لمكانة الإنسان هذا الأساس الغيبي ليبرز حجمه في الضمير الإسلامي⁽¹⁾.

"هكذا وضع القرآن الكريم في آية لكرامة الإنسان قاعدةً سامية بالنسبة لديناه ولآخرته"⁽²⁾. فهو مكرم في أصل خلقته ولذلك هو لا يتغير بوصفه كائناً حياً في حدود التاريخ، وإنما يتغير بوصفه كائناً اجتماعياً تغيره الظروف، وهو بذلك يستطيع أن يعلي من ميزاته الاجتماعية ويزيد من فاعليته العملية⁽³⁾.

وكل حركة نضال سياسي أو اجتماعي "لا تكون ثورة حقيقية لمجرد ما تجتهد في نشر العدالة الاجتماعية بين طبقات الشعب، إذا هي لم تعلّمه كيف يستعيد شخصيته، وتلقنه معنى كرامته"⁽⁴⁾. فعملية بعث الإنسان ترتكز على إعطاء الإنسان حقه مع الحفاظ على كرامته، ولا يمكن التضحية بكرامته من أجل حقوقه⁽⁵⁾.

"فهذا التكريم يكون- أكثر من الحقوق أو الضمانات- الشرط الأساسي للتعبير اللازم في نفس الفرد، طبقاً للشعور الديمقراطي سواء بالنسبة للأنثى أم بالنسبة للآخرين، والآية التي تنص على هذا التكريم تبدو وكأنها نزلت لتصدير دستور ديمقراطي يمتاز عن كل النماذج الديمقراطية الأخرى، دون أن تعبّر عنه نصوص قانونية محددة، فنظرة النموذج الإسلامي إلى الإنسان، هي نظرة إلى التكريم الذي وضعه الله فيه، أي نظرة إلى الجانب اللاهوتي فيه، بينما النماذج الأخرى تمنحه النظرة إلى الجانب الناسوتي والجانب الاجتماعي، فالتقويم الإسلامي يضفي على الإنسان شيئاً من القداسة، ترفع قيمته فوق كل قيمة تعطى له النماذج المدنية"⁽⁶⁾.

(1) ينظر مالك بن نبي: فكرة الإفريقية الآسيوية، ص 235. / ومالك بن نبي: في مهب المعركة، ص 163.

(2) مالك بن نبي: بين الرشاد والتهيه، ص 25.

(3) ينظر مالك بن نبي: تأملات، ص 26، 27.

(4) مالك بن نبي: بين الرشاد والتهيه، ص 25.

(5) ينظر المرجع نفسه، ص 26.

(6) مالك بن نبي: القضايا الكبرى، ص 146.

ومن خلال تحقق احترام الكرامة الوجودية للإنسان ينظر المسلم إلى نفسه أنه صاحب رسالة ومهمة حضارية؛ أن يعرف مكانته ووظيفته في الأرض⁽¹⁾، وينظر إلى ذاته بوعي على أنه خليفة الله في أرضه، يحمل رسالة تعمير الأرض بمنهج الله الذي ارتضاه لعباده، وأنه مسؤول عن الارتقاء إلى مستوى قيم الرسالة الخاتمة ويتمثلها ليتمكن من تمثيلها أحسن تمثيل، ويكون شاهداً على العصر في اعتدال ووسطية⁽²⁾.

وأن يحترم هذه المكانة الوجودية لدى الآخرين مسلمين وغير مسلمين؛ فينظر إلى أخيه المسلم نظرة بناء شبكة العلاقات الاجتماعية على إخاء فعلي متجسد في الواقع، لا نظرة من يعتلي الهرم، وينظر إلى الآخر (المخالف في الملة) نظرة تَبَيُّي جسور تعارف وتواصل وتبادل خبرات لا نظرة تصادم وإقصاء، وذلك ما دام مسالماً غير متورط في العدوان والظلم والإفساد في الأرض.

والسؤال الذي يطرح هنا: ما مستوى الكرامة الوجودية للإنسان المعبر عنها في الواقع الإسلامي وفي الممارسة والمعايشة اليومية؟ هل هو مستوى عالٍ أم منخفض؟ فمستوى الكرامة الإنسانية هو الذي يعكس القيم المتعامل بها في المجتمع واقعياً، فكلما كان مستواها عالياً كان يمكن للإنسان أن ينظر إلى أخيه الإنسان باحترامٍ في الحرمة والحرية والقيمة الإنسانية والحقوق الفردية والاجتماعية والسياسية.

وكلما كانت الكرامة الوجودية للإنسان محترمة كلما تهيأت الأرضية لتنضمَّ جهود الأفراد بعضهم إلى بعض ضمن شبكة علاقات اجتماعية قوية ومتينة، مبنية على الاحترام المتبادل أساساً. وأن القيمة الاجتماعية يكسبها الإنسان بقدر ما يحسنه وما يملكه من مؤهلات، لا عن طريق الوراثة الاجتماعية على أساس من مال أو دم أو تسلط أو سابق معرفة ومحاباة، أي أن يرتقي الناس في المكانة بقدر إمكاناتهم الشخصية العلمية والمهارية، أي بقدر الدور والوظيفة اللذين يمكن أن يتولوهما بما تأهل لديهم من إمكانات وقدرات.

وكلما انخفض مستوى الكرامة الإنسانية المتداول في الواقع كلما نشأت الطبقة في المجتمع وحالت دون أن يتحول المجتمع إلى شبكة علاقات اجتماعية قوية. ولا يمكن أن نحقق فاعلية حضارية دون أن تتشكل منظومة القيم على رفع منسوب الكرامة الوجودية للإنسان، مع التأكيد على حضورها في الواقع. فكل قيمة أخلاقية متداولة في الممارسات

(1) ينظر محسن عبد الحميد: المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري، ص 61 وما بعدها.

(2) ينظر جاسم سلطان: التراث وإشكالياته الكبرى، ص 164-165.

الاجتماعية، حسنة كانت أو سيئة، إنما تعكس مقدار الكرامة الوجودية في نظرة الإنسان إلى نفسه وإلى أخيه الإنسان وإلى الأشياء حوله.

وعند ملاحظة الفضاء العام في تعاملات الناس فيما بينهم؛ في الإدارة، أو العمل أو الوظيفة، أو الشارع، أو الطريق أو المحطة، أو الملعب... أو في شتى مناحي الحياة، يمكننا أن نرصد مقدارا كبيرا محجوبا من مراعاة الكرامة الإنسانية، فكم من كلمات تُقال وممارسات تُفعل يوميا منافيه للكرامة الوجودية.

ورغم أن مفهوم الكرامة الإنسانية أصله القرآن نظريا وتخلقت نواته الجينية في البيئة الإسلامية، لكنه لم ينمو ويتوسع كخبرة ميدانية أصيلة ليتجسد قيمة عملية راسخة لدى تجربة المجتمعات الإسلامية الحديثة. بل في العصر الحديث انتقل تعميق الوعي به تطبيقيا إلى المنظومة المعرفية الغربية، فتبلورت مفاهيم مثل: حقوق الإنسان وحرياته، والعدالة الاجتماعية، والمواطنة والممارسة الديمقراطية، والتفريق بين نقد الشخص ونقد آرائه ومواقفه، ونشوء ميثاق عالمي لحقوق الإنسان في العيش والصحة والتعليم والعمل والممارسة السياسية... التي تصب كلها في تحقيق الكرامة للإنسان أيا كان لونه أو جنسه أو موقعه في العالم، كل ذلك لم يعرف طريقه إلى المجتمعات المسلمة كدين وعبادة لأن المنظومة المعرفية لم تُكْمَل مسيرتها المشرقة إلى نهايتها، وانتكست عبر التاريخ عن الاستمرار في تجلية المفاهيم الكبرى للقرآن التي تتشكل منها الخارطة المفاهيمية الكلية للإسلام.

3-2- نظرة الإنسان للطبيعة والعلم:

2-3-1- الطبيعة:

مفهوم (الطبيعة) أو (المادة) عبّر عنه مالك بن نبي بمصطلح (التراب) بينما عبّر عنه القرآن بقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مِمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ ﴾ وَصِنَ النَّاسُ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ ﴿٢٠﴾ [لقمان: 20]. وحسب التعبير القرآني فإن الكون مصنوع ليكون طوع مواهب الإنسان وإمكاناته.

وتسميته بالتراب لأن المجتمع في المعتاد ينطلق أثناء حركته في التاريخ من رقعة جغرافية محددة يستمد منها مواده الأولية والإمكانات المتوفرة، ثم يتوسع في فهم سنن الآفاق والأنفس ليُخَلِّد حضارته على هذه الأرض. ولكن المصطلح الأكثر تداولاً اليوم هو مصطلح الطبيعة أو الكون.

والطبيعة هي مخزن الأسرار وقوانينها متاحة للإنسان، فكل الظواهر الطبيعية هي محط سؤال كبير، وكشف تلك الأسرار يتم بها التفاوت في قوة المجتمعات⁽¹⁾، فالمجتمعات التي أنتجت الطاقة والآلة والاتصالات والحواسيب والمواصلات والآلة العسكرية... لم تبنيها إلا بتلك العلاقة الوطيدة بين الإنسان والطبيعة.

ورغم أن آيات القرآن الدالة على تسخير الكون والحائثة على التفكير فيه كثيرة، ولكن فكرة التفكير التعبدية ما تزال في الوسط الاجتماعي قاصرة على التفكير الظاهري الذي رغم أهميته وضرورته لتثبيت الإيمان، غير أنه تفكّر غير كاف لاكتشاف وتسخير ما في الكون من سنن وقوانين. فهل يمكن للمنظومة المعرفية الإسلامية أن تزيد من جهودها التأصيلية والتأطيرية لثرسخ في المجتمع التفكير التعبدية التسخيري؟

2-3-2- العلم: قضية العلم تحتاج إلى تجلية من جهتين:

الأولى: أن المقصود بالعلم في القرآن علوم الهداية وعلوم التسخير كلاهما. والثانية: التركيز في تثوير القرآن على صناعة المناخ العلمي المنتج بدل الاكتفاء بالتفسير العلمي.

من الجهة الأولى: طرحنا سابقا الإشكالية المتمثلة في: ما هو مجال العلوم المعتمدة دينيا؟ فقد نشأت الثقافة الدارجة المتداولة على أن المقصود بالعلم في النصوص الدينية هو العلوم الشرعية فقط، وأن بقية التخصصات التجريبية والإنسانية (وهي العلوم التي تعكس الفعالية الحضارية في الواقع الملموس) ليست داخلية في مفهوم العلم الشرعي، وهذه الرؤية تحتاج إلى المراجعة، فقد أنتجت واقعا زاهدا من الناحية التعبدية في التخصصات التجريبية والإنسانية، وانحصر الحرص عليها من أجل الوظائف الاسترازية والمكانة الاجتماعية بطريقة دنيوية غير مستحضرة لفضلها التعبدية ولا لوظيفتها الحضارية.

(1) ينظر جاسم سلطان: التصورات الكبرى والتقدم الاجتماعي، ص37.

بينما نجد مصطلح (العلم) المتداول في القرآن أوسع من حصره في العلوم الدينية وحدها، فعلى سبيل التمثيل: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [البقرة: 31]، ﴿ وَوَرَّثَ سُلَيْمَانَ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْثَقْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾ [النمل: 16]، ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الأنبياء: 80]، ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُمِّتُ بِعَمَتِهِ عَلَيْكَ وَيَكْتُمُ إِلَيْكَ وَيَكْتُمُ إِلَيْكَ وَكَيْفَ إِذَا يَلْعَنُوكَ كَمَا أَنْتَ مَكْتُمٌ لِآيَاتِهِ وَمَنْ يَعْتَدِ آيَاتِنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ نُبَيِّنَ لَهُ آيَاتِنَا وَسِحْقًا إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾ [يوسف: 6]... ومثلها كثير في القرآن.

فإذا كان "العلماء ورثة الأنبياء"⁽¹⁾ فإن الأنبياء -ونحن مأمورون بالافتداء بهم⁽²⁾- لم يُقصر العلم الممدوح عندهم على المتعلق بالدين أي بعلوم الهداية، وإنما جمع للعديد منهم بين (علوم الهداية وعلوم التسخير)، وفي ذلك دلالة على أن ميراث الأنبياء يشمل إضافة لعلوم الهداية جميع العلوم النافعة للإنسانية الناتجة عن التأمل في الآفاق والأنفس. من الجهة الثانية: البقاء في خانة التفسير العلمي الذي ينتظر اكتشاف الحقيقة العلمية ثم يبحث عن إشارة القرآن لها بين آياته لا يصنع الحضارة، وإن كان مهما من ناحية العقديّة (إثبات صدق الرسالة الخاتمة)، أما من أجل صناعة الحضارة فلا بد أن نركز في العلوم الإسلامية على تجلية القيمة القرآنية التي كوّنت فيما مضى المناخ الذي أنتج العقلية التي أنتجت المجتمع الإسلامي في عصوره الذهبية.

علينا أن نركز على "طرح مشكلة الإسلام والعلم في صورة جديدة تتماشى أكثر مع سمو الدين ومنطق العلم، بحيث لا نصبح نبحت في الآيات الكريمة هل ذكر فيها شيء عن غزو الفضاء أو تحليل الذرة، وإنما نتساءل: هل في روحها ما يعطل حركة العلم، أو على العكس ما يشجعها وينمها... إذا ما كان يستطيع القرآن أن يخلق في مجتمع ما المناخ المناسب للروح العلمي، وأن يطلق فيه الأجهزة النفسية الضرورية لتقبل العلم من ناحية، ولتبليغه من أخرى"⁽³⁾.

(1) سنن الترمذي، أبواب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم 2682/4/346.

(2) إشارة إلى قوله تعالى بعدما ذكر عددا من الأنبياء: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْيِهِمُ أُقْتَدَ ﴾ [الأنعام: 90].

(3) بن نبي: القضايا الكبرى، ص 182.

نحتاج إلى الانتقال في علوم (الهداية والتسخير) من الاستهلاك والتكديس إلى التفعيل والإنتاج، وألا يبقى العلم التسخيري وسيلة للوظيفة الاسترزاكية بسبب إخراجها من دائرة ميراث الأنبياء، وأن يرتبط بتطوير الحياة في سياق الاستخلاف التعبدي الدافع لعجلة الحضارة.

4-2- نظرة الإنسان للوقت:

أقسَم الله في القرآن الكريم بالعصر والشمس والقمر والليل والنهار، وإن في ذلك دلالة على قدسية الزمان وأهمية الوقت. وقد ذكر مالك بن نبي كلاماً جميلاً يلخص أهمية الوقت بالنسبة للأمم والمجتمعات: "الزمن نهر قديم يعبرُ العالم منذ الأزل! فهو يمر خلال المدن، يغذي نشاطها بطاقته الأبدية، أو يذلل نومها بأنشودة الساعات التي تذهب هباء، وهو يتدفق على السواء في أرض كل شعب، ومجال كل فرد، بفيض من الساعات اليومية التي لا تغيض، ولكنه في مجال ما يصير (ثروة)، وفي مجال آخر يتحول عدماً. فهو يمرق خلال الحياة، ويصب في التاريخ تلك القيم التي منحها له ما أنجز فيه من أعمال. ولكنه نهر صامت، حتى إننا ننسأه أحياناً، وتنسى الحضارات، في ساعات الغفلة أو نشوة الحظ قيمته التي لا تعوض"⁽¹⁾.

فكيف يتعامل المسلم المعاصر فرداً ومجتمعاً مع الوقت؟

في الغالب الأعم يتعامل الفرد في المجتمع المسلم مع الوقت كأنه عبء يرغب في التخلص منه، أو استنفاده بأي شكل من الأشكال، كأنه يمر ثقيلاً وبطيئاً، وأشد مظاهره وضوحاً عند تفلت الموظف أو العامل من عمله، وطالب المدرسة أو الجامعة من دروسه. أما بالنسبة لاحترام المواعيد في وقتها فالواقع شاهد على قلة احترامها. بينما تتنافس الأمم المتقدمة وتقيس تقدمها بعدد ساعات العمل المطبقة فعلاً.

وسواء كان الإنسان طالباً أو عاملاً فإن الساعات التي يقضيها فيما هو فيه، والطريقة التي يقضيها فيه تحدد نظرته للوقت؛ هل هو مصدر تنافس وارتقاء، أم هو عبء يتملص منه إلى الفراغ والتبطل؟

(1) بن نبي: شروط النهضة، ص 139.

"وبتحديد فكرة الزمن، يتحدد معنى التأثير والإنتاج، وهو معنى الحياة الحاضرة الذي ينقصنا. هذا المعنى الذي لم نكسبه بعد، هو مفهوم الزمن الداخل في تكوين الفكرة والنشاط، في تكوين المعاني والأشياء... إن وقتنا الزاحف صوب التاريخ. لا يجب أن يضيع هباء، كما يهرب الماء من ساقية خربة. ولا شك أن التربية هي الوسيلة الضرورية التي تعلم الشعب العربي الإسلامي تماما قيمة هذا الأمر"⁽¹⁾.

ويمكن للعلوم الإسلامية باعتبارها المورد الرئيسي لإمداد المجتمع المسلم بالقيم والمبادئ أن تجعل ضمن رؤيتها للمساهمة في التفعيل الحضاري أن تغير هذا النمط في التعامل مع الوقت.

وهذه المجالات المحورية (النظر للأخرة وللإنسان والطبيعة والعلم والوقت) التي يمكن للعلوم الإسلامية أن تساهم في تغييرها بما يتوافق مع تحقيق الفاعلية الحضارية؛ عليها أن تصبح ثقافة شائعة متداولة في الوسط الاجتماعي، ولا يكفي فيها أن تبقى مجرد كتابات ومراجعات ومحاضرات، وليس المقصود أن يكون بعض العلماء والمفكرين تحدثوا عنها وناضلوا من أجلها بفكرهم وقلمهم ولسانهم أو حتى بأسلوب حياتهم، فذلك غير كافٍ مالم تتحول إلى ما يشبه الأكسجين الذي يتنفسه الإنسان في وسطه الطبيعي، عندها يمكن للمجتمع أن يتحرك بروح جديدة إلى نهضة جديدة.

3- المنظومة المعرفية الإسلامية بين النقد والتفعيل:

المنظومة المعرفية الإسلامية دائرتان: دائرة مرجعية شاملة، ودائرة مُمَثَّلَة في الواقع تأخذ من تلك الدائرة المرجعية الشاملة.

والدائرة المرجعية هي الأوسع حيث تشمل كل التراث الإسلامي القديم والحديث، أو كل الخبرة المعرفية الإسلامية سواء المدونة أو الشفاهية المسجلة، أما الدائرة المُمَثَّلَة في الواقع فهي الدائرة المتنفذة في تأطير الوسط الاجتماعي العملي للمسلم، وتتمظهر في نوع التدين الذي نراه في الواقع، وهي تستند في تجربتها إلى الدائرة المرجعية تأخذ منها لتؤطر واقعها دينيا.

والدائرة المُمَثَّلَة في الواقع لا تُوفَّق دوما لأخذ ما يناسب عصرها، فكثيرا ما تجنح إلى التقليد والتعصب، أو جر الحاضر إلى الماضي ومنتجاته ومعاركه، أو الوقوف عند مفاهيم صاغها القدماء كأنها نهايات لا تقبل المراجعة والتكميل أو التجاوز، فرغم أنها مستلة من

⁽¹⁾ المرجع نفسه، ص 140.

الوحي إلا أن أفقها المفاهيمي متناسب مع أفق عصرها المعرفي والواقعي، وهي قاصرة على أن تسع أفق عصرنا المعرفي والواقعي⁽¹⁾.

ورغم أن مراجعات عميقة تمت خلال العصر الحديث على يدي كثير من العلماء والمفكرين والدارسين، إلا أن نُسخ التدين الممثلة في الواقع تبدو ملفقة ومتضاربة، تشجع الصراعات المذهبية والطائفية في كثير من خطاباتنا وتمثلاتها، وهذا يجعلنا نحتاج إلى النقد كمنهج يعنى بقراءة ومراجعة النُسخ الممثلة في الواقع والمستلة من المنظومة المعرفية المرجعية.

ولا يمكن انطلاق العلوم الإسلامية إلى أفق التفعيل الحضاري ما لم تحض بمراجعة للمنهج والخطاب والمضمون النافذ والمتحكم في الواقع، أي المشكّل للثقافة الدينية المتجسدة في الوسط الاجتماعي، وسنحاول أن نقف هنا وقفات إجمالية لبيان ما يعيق طريقها إلى تأسيس النهضة والانطلاق إلى بناء الحضارة :

3-1- المنظومة المعرفية المُمثّلة في الواقع ما تزال يعتمدها التجزيئية والتلفيق والتقليد، وتتجاهلها أطراف عدة (مذاهب وأحزاب وجماعات وإيديولوجيات...)، يغلب عليها التزاحم والاهتلاك والإقصاء أكثر من الاحترام والقبول فضلاً عن التنسيق والتعاون وتبادل الخبرات. تحتاج المنظومة المعرفية المُمثّلة في الواقع إلى المزيد من الانضباط والانسجام مع منظومة القيم الكبرى المبنوثة في القرآن⁽²⁾ ومع مقاصد الشريعة الإسلامية. فقيم الإسلام الكبرى مثل (الاستخلاف، الرحمة، الابتلاء والاعتبار، القسط، العبودية، الكرامة الوجودية، الاختلاف، التعارف، الأخوة، المساواة، الإحسان، العمل الصالح، الوسطية، الشهادة على الناس...) ما تزال بعيدة على أن تتحول إلى وعي جمعي مهيمن على الواقع، بل إنها ما تزال تحتاج إلى مزيد من التنظير، "معظمها بقيت قيماً جنينية لم نبحثها بحثاً حضارياً في عمقها الفلسفي، وغالباً ما تمّ التعامل مع تجلياتها الخارجية في شكل مفردات الحلال والحرام... ولم نحولها حتى الآن إلى أول محطة كبرى ضرورية (وهي بحثها فلسفياً)، بحيث تستطيع أن تصبح وعياً عاماً"⁽³⁾.

(1) ينظر عمر عبيد حسنة: مراجعات في الفكر والدعوة والحركة، ص 18.

(2) ينظر جاسم سلطان: التراث وإشكالياته الكبرى، ص 29 وما بعدها.

(3) المرجع نفسه، ص 44.

مطلوب من العلوم الإسلامية اليوم استعادة المفاهيم القرآنية التي تقزمت في ظل عدم استمرار عملية نضجها ضمن ما تقدمه، لا سيما كتب التفسير، فكتب التفسير المؤسّسة مثل تفسير الطبري وتفسير ابن كثير وتفسير الجلالين... وغيرهم، هي أكثر ما يعتمدها الطبقة الوسيطة (مثل خطباء المساجد والأساتذة والمشايخ والمعلمين ...) التي تقرّب المفاهيم الدينية إلى الطلبة وعامة الناس. بينما هذه الكتب على أهميتها التأسيسية فإن المفسر فيها ابن عصره، فسر بعض المفاهيم القرآنية ذات الأفق العالي وفق احتياجات وتطورات عصره، وكانت اجتهاداته لبنة في طريق صرح ما يزال عاليا، وبدل أن تستمر عملية البناء أكتفي بالمعنى الجيني الذي بدأه الأولون، فتقزم المفهوم القرآني، ورغم محاولات المراجعة والتصويب في العصر الحديث من أجل استعادة سعة المفاهيم القرآنية إلا أن السائد في الواقع هي المفاهيم القديمة التي لا تغطي الواقع ولا تستوعبه.

كما أن تلك القيم تحتاج إلى أن تؤصل في شكل منظومة حتى لا يتعارض بعضها مع بعض، وأن تصنف مرتبة وموزعة على الضروريات والحاجيات والتحسينيات.

2-3- ما يزال الدين متجاذبا بين الاستلابية التاريخية التراثية وبين الاستلابية الحدائثية الغربية، "فكلاهما منحاز بصورة حادة لمركز استقطابه على حساب حاضر الأمة ومستقبلها، الذي يحتاج الوعي بهما إلى بصيرة تنفذ إلى عمق الواقع الاجتماعي المعيش، وعمق المنطق الشرعي، وعمق الخبرة التراثية وما يصلح منها للاستصحاب وما لا يصلح، وعمق الخبرة الإنسانية وما نحتاجه منها وما لا نحتاجه، لإثراء حركة نهضتنا الذاتية ووقايتها، وتفعيل انفتاحنا وتواصلنا الحضاري مع المجتمعات الإنسانية الأخرى"⁽¹⁾.

ولقد دفعت الصورة المشوهة التي قُدمت بها الحدائث في العالم الإسلامي إلى رد فعل داخلي منكمفئ على التراث بداعي الحفاظ على الهوية والذات، واستحال النقد من الداخل بسبب تبلور هالة من الخوف صنعتها استلابية تراثية متشددة مع من يحاول ممارسة النقد والمراجعة، وجعلت من يمس بالتراث كمن يمس بالوحي المقدس، حتى عُدت كل محاولة للمراجعة والإثراء تحاملا على التراث.

لا يوجد حقيقة أجوبة لكل أسئلة العصر الحديث في التراث القديم، كثير منه هو ابن عصره، يغطي نضجه مساحة احتياج عصره، ويبقى قاصرا عن تلبية احتياجات عصرنا، يحتاج إلى الإضافة أو التنوع أو إعادة التأصيل.

(1) الطيب برغوث: الفعالية الحضارية والثقافة السننية، ص 65.

3-3- نزل القرآن الكريم ليبيّن التصورات الكلية عن الإسلام، ولذلك ضُيِّن في الصلوات اليومية ورغب في تلاوته وتدبره، وحتى السنة النبوية أزيحت في العهد الأول من طريق مزاحمة القرآن من أجل هذه الغاية بتحذير من النبي ﷺ بأن لا يكتبوا عنه شيئا سوى القرآن، ومن كتب شيئا عليه أن يمحه ويتخلص منه⁽¹⁾. كل ذلك من أجل أن تتكرر الآيات تلاوةً وتدبرًا ليبسط القرآن هيمنته على النفوس والمجتمع ويتولى مباشرة عملية التأسيس في الواقع للتصورات الكلية عن الإسلام.

ولكن بعدما طال العهد بالناس غابت هذه الوظيفة، وأصبحت التصورات الكلية تؤخذ من الكتب والمشايخ والمذاهب والوسائط المعرفية، وفقد القرآن بسط هيمنته على النفوس والمجتمع، ولم تعد التصورات الكلية تتأسس منه مباشرة.

القرآن هو الذي أسس لسبل تركية النفس ولأصول تغيير المجتمعات، ولسبل الدعوة والعمل الميداني، ولإدارة الصراع بين الحق والباطل، ولأسس بناء نظام المجتمع وفعاليتيه الحضارية، وهو الذي يجب أن يتأسس الواقع به لا سيما في تكوين المسلم وتحصيله لكليات الإسلام. وهذا يحتاج جهدا تفسيريا جديدا ومتجددا يتماشى مع الأجيال يفسر القرآن ليؤطر الواقع السائر إلى انفجارات معرفية متنامية، فالقرآن اليوم لم يعد مصدر تكوين شخصية المسلم ولا مصدر تأطير المجتمع، ولا حتى السنة النبوية رغم أن ذلك ليس من مهمتها إذ مهمتها البيان بالتفصيل والتوضيح، وإنما يرجع التكوين والتأطير في كثير منه اليوم إلى بعض ما كتب القدماء، وقليل جدا مما كتبه المعاصرون.

ومن أجل هذه الغاية لا بد أن نستعيد التدبر العملي للقرآن، الذي ينشأ عنه العمل في الواقع والحياة، التدبر الذي يقدح الفكرة الدينية في النفس، ويعمل على بثها في الواقع الاجتماعي، وهو التدبر الذي نتج عنه في العصر الحديث الاتجاه (الهدائي الاجتماعي) في تفسير القرآن الكريم.

فالتدبر الذي يبحث عن اللطائف القرآنية والمباحث اللغوية مهم، ولكنه ليس هو الذي ينتج الحضارة، وإنما هو من منتجات الحضارة عندما تتوسع، ويصبح ترفا فكريا في غياب التدبر العملي الذي ينتج التزكية في النفس والفاعلية في المجتمع، ويبني شبكه العلاقات الاجتماعية على أساس القيم القرآنية.

(1) الحديث (لا تَكْتُبُوا عَنِّي، وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ) صحيح مسلم، كتاب الزهد والرفائق، رقم 3004.

3-4- العلوم الإسلامية بين النص والعقل: الصراع التاريخي الذي حدث بين أهل الحديث وأهل الكلام نتج عنه مبالغات في ذم علم الكلام باسم الانحياز للنص، وبسبب انخفاض الوعي الذي حدث بشكل تدريجي حول فهم طبيعة العلاقة التكاملية بين النص والعقل⁽¹⁾، تم إدانة العقل وتقليص وظيفته الطبيعية داخل العلوم الإسلامية، بدعوى أنه يتجاوز النص الموحى ويشوه قدسيته. كما تم في المقابل تجميد النص من خلال الاكتفاء بظواهر النصوص والتفسيرات المعجمية الحرفية.

ورغم وجود شخصيات علمية كثيرة - قديما وحديثا- جمعت بين المدرستين والمنهجين، وأبانت أن الاعتدال الجامع بين النص والعقل هو ما تحتاجه الأمة لشحن فعاليتها، إلا أنه ما تزال المنظومة المعرفية الإسلامية متأرجحة ضمن جدلية النص والعقل، بين ظواهر الآيات والأحاديث وروح الآيات والأحاديث، بين الاقتداء الحرفي بالسلف والاقتداء بمنهج السلف، بين الاعتماد في الفتوى على استنباط قواعد ومبادئ من نصوص جزئية وبين تحصيلها من استقراء عديد النصوص التفصيلية.

وأصبح العقل مدانا والتأويل مذموما، وغدى يُطلق مصطلح (المدرسة العقلية) وهو يختزن كثيرا من المعاني السلبية تصل في تطرفاتها حد التبديع والتضليل.

بينما المنهج العقلي في اعتداله لا يكتفي بالظاهر الذي قد يكون سطوحيا أحيانا، وإنما هو غوص على فهم روح الدين ومقاصده وحكمته⁽²⁾، ومحاولة للكشف عن النسق الرابط بين نصوص الدين، كما هو الحال بالنسبة لمقاصد الشريعة الإسلامية والتفسير الموضوعي والمنظومة القيمية للإسلام، لجعله قاعدة الفتوى والتشريع وتوجيه حياة الناس الفردية والجماعية.

لا يمكن لمجتمع يتنازع بين العقل والنص أن ينطلق إلى تأسيس الفعالية الحضارية، فهي لا تتأسس سوى من خلالهما معا، كلاهما يضبط الآخر في ميدان سلطته، فالنصوص الشرعية مواد خام تحتاج إلى من يثورها ويحرك بها الواقع، ولا يتم ذلك سوى بالفهم المستوعب للأسس والمناهج والمقاصد والمعاني التي ينتجها العقل تبعا للواقع وتطوراته، ولا يمكن للعقل أن ينتج فاعلية مُحَكِّمة ومطرّدة دون التأسيسات الصلبة (محكمات النص) التي تضبط أهواءه وتفلتاته.

(1) ينظر طه جابر العلواني: إصلاح الفكر الإسلامي، ص 132.

(2) ينظر بن نبي: القضايا الكبرى، ص 123.

3-5- بين التدين والواقع: هناك نسخة من المنظومة المعرفية المبنية على العلوم الإسلامية أصلية تقارب بين النص الديني والواقع بشكل يقترب من التوافق والتطابق، وترشده بفكرة دينية صحيحة تدفع به إلى معترك التدافع الحضاري، ولكنها ما تزال بعيدة عن التمكن من الأخذ بزمام الواقع وتسييره بسبب تحديات عديدة توضع في طريقها.

وهناك نسخة مطموسة انحرفت عن تلك النسخة الأصلية ونزعت إلى التقليد والجمود، وطُمسَت فيها الفعالية والدور الحضاري للمسلم، تشجع على ترك مواجهة التحديات الاجتماعية والانزواء إلى حصر النجاة الأخروية في الاكتفاء بالتعبد الفردي الشخصي، فأصبح الدين معها معامل انسحاب وخروج من دائرة التأثير في الحياة. إنها النسخة المنومة والمخدرة، تعود بظاهرة الإرجاء في ثوب معاصر.

وهناك نسخة مزورة ومغشوشة بنيت عن قصد وتدبير وتحريض من أجل تبرير واقع الاستبداد والإفساد لصالح المستفيدين منه، يحمون بها مصالحهم وبقاءهم على رأس هرم المجتمع، وهي تلتقي مع النسخة السابقة في تشجيع التدين الفردي وترك النضال الجمعي الاستخلافي الذي يحقق العدل والحق والحرية والنهوض الحضاري.

ولكن هذه النسخ الثلاثة لا تتمثل كل واحدة منها في الواقع دائما على حدى، بل في الغالب يتشكل من التّوليف بينها نسخ عديدة في شكل أطيايف يلتبس فيها الأمر على الناس بين ما هو حق وصواب وما هو دون ذلك. من أجل ذلك تحتاج المنظومة المعرفية الإسلامية المجسدة في الواقع إلى مراجعة وتأصيل مستمرين، لتمكين المسلم من الارتباط بالفكرة الدينية الصحيحة. وهذا يحيلنا دوما إلى مراجعة ما يستحق المراجعة من العلوم الإسلامية كي تبقى دوما منسجمة مع متطلبات الواقع.

"فالدين حين يخلق الشبكة الروحية التي تربط نفس المجتمع بالإيمان بالله، وهو يخلُق بعمله هذا أيضاً... شبكة العلاقات الاجتماعية التي تتيح لهذا المجتمع أن يضطلع بمهمته الأرضية، وأن يؤدي نشاطه المشترك: وهو بذلك يربط أهداف السماء بضرورات الأرض. فإذا قال الدين قوله سبحانه: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:56] فإن الله عز وجل لم يرد بهذا القانون أن يفصل الناس عن الأرض، ولكن أراد أن يفتح لهم طريقاً خيراً ليضطلعوا بعملهم الأرضي"⁽¹⁾.

(1) بن نبي: ميلاد مجتمع، ص79.

والتسمية الاصطلاحية لجزء من الفقه بالعبادات أحدث التباسا بسبب البعد الزمني عن المفاهيم اللغوية الأصيلة أثناء نزول القرآن؛ إذ ارتبط تدريجيا في الأذهان مفهوم العبادة المذكور في القرآن بأنه فقط باب العبادات في كتب الفقه (الطهارة والصلاة والصوم والزكاة والحج والعمرة والصدقة والذكر وقراءة القرآن). وهذا الأمر ساهم في جعل الدين سببا في عزلة المتدين عن المجتمع، بل إن الملاحظ في المجتمع أن شريحة من الناس كلما ازدادت تدينا كلما ازدادت عزلة عن الواقع وتحدياته فظننا منهم أنهم يعتزلون الباطل والفساد بعزلتهم عن المجتمع.

ينبغي لكي تسترجع العلوم الإسلامية قدرتها على التفعيل الحضاري أن تسترجع المفهوم القرآني للعبادة والذي يشمل كل مجالات الحياة، وأن تمتلك القدرة على "تكوين نظام الانعكاسات الذي يغير سلوك الفرد، وهذا التغيير النفسي هو الذي يستهل حياة المجتمع، وهو أيضا الشرط النفسي في كل تغيير اجتماعي"⁽¹⁾.

4- تلقي العلوم الإسلامية بين الروافد الأكاديمية والحركات الإصلاحية:

1-1-4- بين الروافد الأكاديمية والحركات الإصلاحية:

1-1-4- الروافد الأكاديمية: تتميز الروافد الأكاديمية بالموضوعية ودقة الضبط والتعمق في العلم أو التخصص، ولكن صرامتها المنهجية تجعلها منحازة إلى التنظير الجاف، أي أنها لا تمنح روحانية الإسلام والاندماج به في الواقع، فهي لا تملك وسائل إمداد الطالب بالتجربة الميدانية.

فعلى أهميتها التقعيدية والتنظيرية والموضوعية، إلا أن الطبيعة العقلية الجافة التي أوغلت فيها بسبب التعليم الأكاديمي والدراسات الأكاديمية، تعطيها المقدرة على إشباع الفكر والعقل والتكوين العلمي الرصين، بينما تحجب عن ارتواء العاطفة والوجدان في الغالب.

في بعض محاولات العلوم الإسلامية في سياقها الأكاديمي تقوم بتعريف الدين للإنسان بعيدا عن تعريفه بربه، ولذلك لا تنشأ العلاقة الخاصة بين العبد وربّه الذي يعبده، إن الإلزام بالقانون بعيدا عن معرفة رحمة وحكمة واضعه يجعل النفس تأتيه على ضجر وتملل، أما إن عرفت واضعه حق المعرفة وفهمت مقاصده فإنها تنشط حد الإيثار والتضحية.

(1) المرجع نفسه، ص79.

والمسألة لا تتمثل دوماً في تلقين المسلم عقيدته وأصول دينه؛ ولكنها تتمثل أيضاً في إعادة تلقينه استخدامها وفعاليتها في الحياة⁽¹⁾.

لقد نزل القرآن يخاطب بآياته العقول ويحرك في ذات الوقت بالآيات ذاتها الوجدان، ويعمق بهما معا مضامينه في الذات الإنسانية. وعندما ظهر (إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي) كان هدفه إعادة فعالية الفكرة الدينية إلى ذات المسلم، أي ليجدد الجانب الروحي من علوم الدين التي بدأت تتلاشى بفعل التعليم الذي يركز على الفكر والعقل ويهمل الوجدان، فالتحول النفسي لا يقع بالفكرة مجردة عن العاطفة، وإنما تستجيب النفوس في ميدان العمل والالتزام للأفكار التي لامست عواطفها ووجدانها.

العلوم الإسلامية متكئة على الوحي، ومهما توسعت وتفرعت فوظيفتها لا بد أن تكون في جزء كبير منها من وظيفة الوحي. وقد جاء الوحي مرشداً وهادياً إلى معرفة الله واتباع تعاليمه في الحركة على وجه الأرض. لأجل تلك الوظيفة لم يكتف الوحي بوظيفة التعليم؛ أي بالنقاش الموضوعي والإقناع الفكري والعقلي، وإنما مزج بينه وبين مخاطبة الوجدان، لأن التغيير الذاتي لا يقع في نفس الإنسان على مستوى الذهن وحده بأفكار مجردة، إذ تحتاج تلك الأفكار إلى احتضان وتبنيٍ لتتحول إلى عقيدة وتزكية وعمل. ومهما تعلم الإنسان من علم فإنه لا يتحول علمه إلى عمل قبل أن تحتضنه عاطفته وتحوله إلى خبرة وجدانية تلامس الروح.

هذه الوظيفة كانت تقترب منها العلوم الإسلامية وتبتعد عنها بحسب منهج عرضها وتعليمها تدريسا أو كتابة، وتبعاً لمدى الاقتراب من تلك الوظيفة يتحدد الأداء الحضاري للمسلم في واقعه.

4-1-2- الحركات الإصلاحية: أما الحركات الإصلاحية فتكتفي بالعلم في إطاره العام غير المتخصص، وقد تكتفي بالقليل منه لأتباعها من أجل أن تفسح مجالاً أكبر لعملها الإصلاحي الميداني، الذي يتطلب الاحتكاك بالناس ومعرفة انشغالاتهم وأملهم وبث الوعي فيهم لينخرطوا في العمل الإسلامي، حيث تقوده إلى النضال من أجل ما تراه من مصلحة المجتمع حسب رؤيتها واجتهادها.

(1) ينظر القضايا الكبرى، ص 123

ولكن رؤيتها وأهدافها للمجتمع ومنهج سيرها ومواقفها في مختلف أحوال الواقع المتقلب لا تكون دوماً متناسبة مع المرحلة التي يعيشها المجتمع، ولا يمكنها دوماً أن تحقق الصواب فيما هو من مصلحة المجتمع بسبب انشغالها الميداني، وهي المساحة التي يمكن أن تستعين فيها بالمنهجية الأكاديمية لترفدها في تأصيل ومراجعة نضالها ومواقفها. والذين يجتمع لهم الجمع في تكوين ذواتهم بين المؤسسات الأكاديمية (جامعات، معاهد، مخابر، مراكز...) والتجربة الميدانية (حركة إصلاحية، حلقة مسجد، جمعية دعوية أو إغاثية أو أي عمل تطوعي دعوي أو اجتماعي أو سياسي...) يكونون أكثر فاعلية بالإسلام من غيرهم، وتظهر من خلالهم حركية الإسلام وفاعليته أكثر من غيرهم.

2-4- مشكلة التخصص وضعف التكوين التكاملي:

التخصص في مجال من مجالات المعرفة أصبح ضرورياً في واقعنا المعاصر بعدما توسعت العلوم وتشعبت، وكذلك الأمر بالنسبة للعلوم الإسلامية بعدما أصبحت تملك تراثاً ضخماً يصعب استيعابه كله بشكل فردي، وظهر أمر التخصص كما ظهرت معه التسميات حسب ما انقطع إليه الانسان من مجال علي (المفسر، الفقيه، الأصولي، المتصوف، المتكلم...) (1)، ثم أضفت تلك التسميات روحها على العصر وظهرت التخصصات الأكاديمية ضمن الدراسة الجامعية.

وبدل أن تكون التخصصات مصدر تغطية تكاملية شاملة لاحتياجات المجتمع نزعت إلى الانفصال عن بعضها بشكل سلبي، يشيد أصحابها كل منهم بالتفاضل بدل استحضر وتعميق التكامل. ويدرس كل طالب تخصصه دون استحضر تكامله مع باقي التخصصات. وكذلك يدرس كل أستاذ تخصصه بعيداً عن استحضر تكامله مع بقية التخصصات، فيتضخم جانبٌ علي لدى الطالب على حساب الجوانب الأخرى المكتملة، ويختل تكوينه العلمي، حيث يختل تبعاً لذلك تقديره لما يحتاجه الواقع، بسبب نظره إلى مشكلات الناس من زاوية التخصص لا من منطلق مقاصد الدين ومصالح الناس.

لكي تسترجع المنظومة المعرفية الإسلامية هذه الميزة لا بد أن نوجد التأليف الأساسي بين المحاور التكوينية الثلاثة للعلوم الإسلامية (العقيدة والفقه والتزكية) أن تشتغل ممتزجة مع بعضها، لا منفصلة عن بعضها كأن بعضها يكفي عن بعض. إن العلوم الإسلامية في بداية مرافقتها لنشوء وتوسع المجتمع المسلم الأول كانت تشتغل في شكل منظومة معرفية،

(1) ينظر أبو الحسن الندوي: ربانية لا رهبانية، ص 24.

لا في شكل وحدات منفصلة تحتاج لمن يجمعها بداخل الذات الإنسانية المتلقية لتلك الوحدات، فليس متاحا لكل فرد في المجتمع المسلم المؤهلات التي تجعله يحوّل ما تلقاه من علوم إسلامية ليعمل داخل ذاته في شكل منظومة.

وإننا نحتاج أيضا إلى ثقافة التوازن بين طلب العلم وتطبيقه أو تفعيله، بحسب الاحتياج للعمل وتصحيح التصور، وإن حدث وتجاوز الرصيد العلمي الجانب المطبق العملي منه، فعلى أن نراقب دوما الهوية المتباعدة بينهما حتى لا نقع في تكديس المعرفة التي لا يبنى عليها عمل أو بلاغ، ونحاول التركيز ابتداء على ما يبنى عليه عمل مما يحتاجه الإنسان والمجتمع، ويتم التوسع حسب الاحتياجات والتحديات.

3-4- الإنزلاق إلى العزلة الاجتماعية أو الإنغماسية الدنيوية:

المتخرجون من كليات الشريعة ومن معاهد تكوين الأئمة هم مخرجات العلوم الإسلامية في سياقها الأكاديمي، وهناك إشكال نلاحظه بالنسبة لكثير منهم⁽¹⁾، فبينما من صلب وظيفتهم الحضارية تعليم وإرشاد وتوجيه أفراد المجتمع الذين يحتكون بهم ويتحركون وسطهم امثالاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: 122]، غير أنهم إما ينزلون عن المجتمع أو يدوبون فيه، وقليل منهم من يندمج مع مجتمعه بالقيم الإسلامية، يخالطهم ويعمل على الارتقاء بهم إلى المفاهيم الدينية المنتجة للفعل الحضاري.

وفرقٌ بين الذوبان والاندماج؛ إذ الذوبان يعيش صاحبه مع الناس واقعهم بالحسّ نفسه الذي يعيشون به، وهو في الغالب حس الغفلة الغارقة في الدنيوية المادية غير العاملة على ممارسة عمل التوجيه والإرشاد. بينما الاندماج هو معايشتهم في اهتماماتهم وانشغالاتهم بحس إيماني تعبدية يبيّن ويذكر ويوجّه ويدعو وينصح، يضيف جهده إلى من حوله بحس رسالي تعبدية.

أما العزلة فهي العيش بقيم الإسلام في دائرة ضيقة شخصية لا تتعدى الذات والأسرة الصغيرة أو الكبيرة والمتوافقون معه في التكوين الديني (أي جماعته الخاصة)، وإذا نال وظيفة في التعليم أو الإمامة يؤديها كوظيفة استرزاكية لا كوظيفة حضارية. أما بقية المجتمع فيُحرم من علمه والاقتداء به في المقدار العلمي الذي أحسن فهمه وتطبيقه.

(1) هذا التحليل مبني على الملاحظة الميدانية الشخصية القاصرة في ظل غياب دراسات ميدانية إحصائية استقرائية تتبع مآل وإنجازات المتخرجين من جامعات وكليات العلوم الإسلامية بعد اندماجهم في الحياة العملية.

ويصبح بذلك تكوين المتخصصين في الشريعة لا يحقق في الغالب المقصد القرآني المنصوص عليه (قرآن) كإجراء بنائي وقائي، يحيي المجتمع من الجهل والغفلة والعبثية والمسارات غير المتوافقة مع سنن صناعة النهضة. فالوظيفة الرسالية ليست مُوصَّلةً بشكل عميق في ذوات حملتها، بل عند بعضهم لا تكون واضحة حيث يعترتها الضبابية أثناء الانخراط في تفاصيل الحياة وجزئياتها. وغدى المنتج البشري للعلوم الإسلامية يسيراً منه يصبُّ في حركة الصحوة الحضارية المعاصرة، وكثير منه يأوي إلى رغيغ أو وظيف، ويجعل منها جسراً للاستزاق وتحسين المكانة الاجتماعية أو الرتبة العلمية الشخصية.

وعلىنا مراجعة نوعية الإنسان المسلم الجزائري الملتحق بالدراسات الإسلامية من خلال الجامعة أو من خلال معاهد التكوين الديني للأئمة، فما لم تكن الرسالة الحضارية واضحة المعالم في ذهنه لن تتحول العلوم الإسلامية على يديه رسالة يبثها للناس وحركة يتعهد بها في الدين بين يديه من نشء وشباب والناس عامة.

لقد سادت ثقافة اجتماعية انقلبت بسببها الوسائل إلى غايات؛ فالعلوم الإسلامية وسائلٌ غايتها تحصيل المعرفة بالله والتَّحرُّكُ بمنهجه على وجه الأرض، وتحقيق التنمية وإقامة الحضارة في إطار العبودية لله تعالى. بينما هذه العلوم أصبحت تُطلب لذاتها حتى تحولت من الترشيد إلى التكريس، ولم تعد تُبدَل في كثير من الأحيان لأجل العمل، بل تطلب كحرفة أو متاع فكري.

وبحسب الخبرة الشخصية فإن الذين يلتحقون بتخصص العلوم الإسلامية في الجامعة غالباً يكونون من ضعاف أو متوسطي التحصيل العلمي في مرحلة الدراسة بالثانوية، ويعتبر معدل الحصول على البكالوريا هنا مؤشراً لمدى الاستعداد النفسي لطلب العلم والتعمق فيه وتَبَيُّن رسالته في التخصص الذي يختاره. فالرغبة في التنافس الخيِّر والتفوق في العلم وحمل رسالته الاجتماعية تكون منخفضة عادة عند الملتحقين الجدد بجامعات ومعاهد العلوم الإسلامية. ولسنا نهمل هنا الاستثناء لأنه غير موجود، بل هو موجود، ولكننا بصدد الحديث عن التيار العام الذي يصب بشكل هادر في النهضة الإسلامية على أرض الواقع.

4-4- العلوم الإسلامية في محاضن الحركات الإصلاحية:

الحركات الإصلاحية كانت أقرب إلى تكوين المسلم الحركي المؤثر في الواقع أكثر من الروافد الأكاديمية، إلا أنه ينقصها في تكوينها الضبط التأصيلي المنهجي الذي تملكه الروافد الأكاديمية بحكم امتلاكها أدوات الجهد التأصيلي. فالحركات الإصلاحية تحتاج أن تدقق اجتهاداتها الميدانية التي تبني مواقفها بالاستعانة بالكفاءات الأكاديمية. ومن مشكلاتها:

- أنها تعكف على التبريرية لمواقف اتخذتها في الماضي وتستمر عليها ولا تقبل مراجعتها أو حتى مناقشتها، وتفسر كل نقد موجه إليها من خارجها على أنه طعن وتشويه، ولذلك يلزمها الشجاعة لمراجعة الرصيد الذي تتكئ عليه من العلوم الإسلامية المؤظفة لتأطير عملها الميداني، حتى تنخرط في الفعل الحضاري بفاعلية أكبر.

- من شأن الحركات الإصلاحية أنها في الغالب لا تتمحور حول الفكرة الدينية لذاتها باعتبارها الحقيقة المباشرة المستوحات من الوحي، وإنما ترتبط بالفكرة الدينية من خلال الأشخاص (القيادة والزعماء والمشايخ...) (1)، وتجعلهم قبلها، لذلك يلتبس عليها الأمر بين احترام الأشخاص وتقديسهم، ويستحيل الأمر بعدهم أن تتم المراجعات والتصويبات (2)، وربما تكون مواقفهم مبررة في لحظتها التاريخية باعتبارها تجارب أولية، أو تجارب مرتبطة بظروف اجتماعية وسياسية خاصة، وبدل أن تراجع مدى صلاحيتها لدى أجيال اللاحقة تستمر بالعكوف عليها كنهايات لا تتحول عنها، وتخسر عملية النضج بالتجربة من خلال المراجعة والتصحيح المستمرين.

- ازدواجية الخطاب لدى الحركات الإسلامية (جماعات، أحزاب، جمعيات..) رغم أنها تدعو في خطابها العلني إلى التعاون والتكامل، غير أنها تخالف ذلك بخطابها في محاضنها الخاصة التي تنعكس في سلوكها وسلوك أفرادها. فمشكلة الجماعات أنها تنغلق على نفسها ولا تحقق العمل المشترك في المجتمع الذي يفترض أن تصب فيه جهود جميع الجماعات والأحزاب والجمعيات، حيث تبدو من ممارساتها أنها تريد أن تمثل المجتمع وحدها، وتتحول من الدعوة إلى العمل بالإسلام إلى الدعوة لخدمة الجماعة أو التنظيم (3)، حيث تلتبس الوسيلة (التنظيم) بالغاية (الدين) ويتبدلان الأدوار، أين يتحول

(1) ينظر الطيب برغوث: التجديد الحضاري وقانون النموذج، ص 94.

(2) ينظر المرجع نفسه، ص 73-74.

(3) ينظر فريد الأنصار: البيان الدعوي وظاهرة التضخم السياسي، (المبحث الثاني: الدعوة إلى الله: لا إلى الأحزاب والهيئات)، رغم شهرة الكتاب لم أتمكن من الحصول عليه مطبوعاً، وهو منشور على النت بصيغة وثيقة غير مطبوعة، (الموقع <https://foulabook.com>).

الدين إلى وسيلة يخدم التنظيم الذي تبوء مكان الغاية⁽¹⁾، وبدل أن تصب جهود التنظيم في خدمة المجتمع يجعل من المجتمع خادما للجماعة⁽²⁾. ومن هنا تظهر مشكلة التنافس التزاحمي الإقصائي على حساب التنافس الخيري المشترك. وتحدث مظاهر من مثل التنافس على المساجد والنقابات والمنظمات والجمعيات.

وإذا نودى للعمل المشترك ترى كل جماعة نفسها أنها من تملك المنهج الحق، ويكون التعاون تبعاً لذلك متنازعا على قيادته، وينبني على ذلك أن قيادة مركب العمل المشترك يكون عند كل جماعة حسب تصورها هي باعتبارها تملك الفهم الصحيح للدين⁽³⁾، لا منطلقاً من أرضية تؤسس للمتنفق عليه من منطق تساوي المتشاركين فيه.

والصراع بينها ليس صراعاً سطحياً، وإنما هو في العمق، من أجل السيطرة وفرض النفوذ وتمثيل المجتمع بأحادية قطبية. وفكرة التمكين لديها لا تكون بتمكين مشروع المجتمع والمشروع المشترك، وإنما تكون بالتَّمَكُّن من المجتمع واقحامه في المشروع الفتوي أو الأحادي الخاص بالجماعة. ويصبح التعامل بأخلاقيات الإسلام محصوراً لديها -بوعي أو بغير وعي- داخل المنتمين للجماعة، أما من هم خارجها - لا سيما المنافسين - فكأنه يجوز معهم اللمز والغتبة والتشفي والتجسس.

فالإطار المعرفي التأسيسي لجماعات الحركات الإصلاحية يحتاج إلى مراجعة، ويتحقق ذلك من خلال مراجعة المنظومة المعرفية للعلوم الإسلامية التي تتكى عليها تلك الجماعات في العمل الإسلامي وفي تكوين أفرادها، فهي تحتاج إلى أن تجدد منطلقاتها الميدانية الفعلية المتداولة في المحاضن، لتؤسس عملها على القيم الدينية الجامعة، التي تحقّق التعاون والتكامل الحقيقي، وليس الذي يُعْلَن بالقول ويخالف بالعمل والممارسة.

(1) ينظر عبد الله النفيسي: الحركة الإسلامية ثغرات في الطريق، ص 49.

(2) ينظر جاسم سلطان: أزمة التنظيمات الإسلامية، ص 64.

(3) ينظر المرجع نفسه، ص 66.

خاتمة:

تمت مراجعات كثيرة من فجر الصحوة الإسلامية إلى اليوم من خلال أعلام كُتُر، إلا أنه لم يتشكل منها مشروع متكامل للنهضة يُطرح في الواقع ميدانيا، بقيت تلك الجهود متناثرة يؤخذ منها ويترك حسب الاختيارات الشخصية لكل فرد أو جماعة، ولم يتجدد بها الوجدان الديني لدى المسلمين في إطار الثقافة الغالبة على المجتمع.

الفعل الحضاري لا يصنعه العلم النظري المجرد، ولذلك على العلوم الإسلامية أن تمارس وظيفة التثقيف الذي يصنع الفعل الحضاري، أي أن توجد لها سبل التأثير في الذات الإنسانية والأوساط الاجتماعية لتنصع لها سلطتها في الواقع الاجتماعي.

ومطلوب من العلوم الإسلامية قبل ذلك أن تنتظم في شكل نسق معرفي تكاملي منسجم، حتى يستطيع الدين أداء وظيفة تكوين الإنسان معرفيا ووجدانيا وسلوكيا، كي يصبح فردا منخرطا في قضايا المجتمع وفاعلا في الحضارة.

لا بد أن يُفتح النقاش حول تجديد مفاهيم تأسيس الفعل الحضاري، ويتم تقديم رؤية واضحة متفق عليها أو غالبية على الأقل؛ عن النظر إلى الدين باعتباره عامل حركة وإنجاز في الدنيا لإنقاذ الآخرة، وإلى النظر للإنسان من خلال كرامته الوجودية التي تعطيه قدسية المكانة والوظيفة، وإلى العلم المطلوب شرعا أنه يشمل علوم الهداية وعلوم التسخير معا، وإلى العمل الصالح أنه الذي يشمل كل نشاطات الإنسان في الحياة، وإلى الكون باعتباره ميدان كشفٍ لسننه وتسخيرٍ لإمكاناته، وإلى الوقت باعتباره مقياس إنتاج وتنافس وتداول.

ووجود عمق معرفي نظري تأصيلي أنتجته النخب الإسلامية المعاصرة أمر غير كافٍ ما لم يكن هناك انتشار ثقافي جماهيري، يجعلها جزءاً من تفكير الإنسان العادي وأشواقه، وما لم يتم تبنيها كمبدأ يسير الحياة من خلال مؤسسات وإجراءات راسخة في الواقع، ثم حمايتها من الاختراق والتلاعب والاستغلال.

والأنساق المعرفية المؤطرة لثقافة الوسط الاجتماعي لا تتغير بسهولة وبقفزات طفوية، فغالبا يحدث من أجلها معارك فكرية مستمرة ونقاشات عميقة، وتنال حظها التدريجي من الزمن كي تتغير. إذ هي التي يُبنى عليها التصرفات والسلوكات والمواقف في شعاب الحياة، فإذا انهارت الأنساق المعرفية القديمة انهارت معها معارف تفصيلية كثيرة بنيت عليها.

وهذه المهمة منوطة بالعلوم الإسلامية من خلال ما تملكه من رصيد معرفي رصين، ومن خلال ما يمكن أن تطرحه في الواقع من أنساق معرفية ومنظومات قِيَمِيَّة مؤصَّلة ومنسجمة.

ولا بد أن تُأجراً هذه القيم والمفاهيم وتفتح على الواقع، وتكون واضحة في ذهن الأب والأم والمعلم والأستاذ والمربي والإمام، وفي الأسرة والإدارة والمسجد والمدرسة... أي أن تصبح هنالك لغة ثقافية واحدة في التعبير عن القيمة بعد الاتفاق على مفهومها وطرحها في الواقع.

المصادر والمراجع:

* القرآن الكريم.

* كتب الحديث:

- 1- مسلم بن الحجاج النيسابوري: المسند الصحيح (صحيح مسلم)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).
- 2- محمد بن إسماعيل البخاري: الجامع المسند الصحيح (صحيح البخاري)، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط.1، 1422هـ.
- 3- محمد بن عيسى الترمذي: الجامع الكبير (سنن الترمذي)، تح: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998 م.

* المؤلفات:

- 1- عبد الله النفيسي: الحركة الإسلامية ثغرات في الطريق، مكتبة آفاق، ط.1، الكويت، 1433هـ-2012م.
- 2- أبو الحسن الندوي: ربانية لا رهبانية، دار الشروق، ط، بيروت، 1388هـ.
- 3- الطيب برغوث: التجديد الحضاري وقانون النموذج، دار رؤى، ط.1، بيروت-لبنان، 1435هـ-2014.
- 4- الطيب برغوث: الفعالية الحضارية والثقافة السننية، دار قرطبة، ط.1، الجزائر، 1425هـ-2004م.
- 5- جاسم سلطان: أزمة التنظيمات الإسلامية، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط.2، الأردن، 2015.
- 6- جاسم سلطان: التراث وإشكالياته الكبرى، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط.1، بيروت، 2015.
- 7- جاسم سلطان: التصورات الكبرى والتقدم الاجتماعي، مركز الوجدان الحضاري، قطر، (د.ت).
- 8- جودت سعيد: فقدان التوازن الاجتماعي، ط.1، الجزائر، 1990.
- 9- طه جابر العلواني: إصلاح الفكر الإسلامي، دار الهدى، عين مليلة-الجزائر، (د.ت).
- 10- عبد الكريم زيدان: المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، مؤسسة الرسالة ناشرون، ط.1، بيروت-لبنان، 1425هـ-2005م.
- 11- عمر عبید حسنة: مراجعات في الفكر والدعوة والحركة، دار الهدى، عين مليلة-الجزائر، (د.ت).
- 12- فريد أنصاري: البيان الدعوي وظاهرة التضخم السياسي، (الموقع <https://foulabook.com>)، تاريخ الدخول: جانفي 2022.
- 13- مالك بن نبي: بين الرشاد والتهيه، دار الفكر، ط.1، دمشق-سورية، 1978م.
- 14- مالك بن نبي: القضايا الكبرى، دار الفكر المعاصر: بيروت-لبنان/ دار الفكر: دمشق-سورية، 1420هـ-2000م.
- 15- مالك بن نبي: تأملات، دار الفكر، ط.1، دمشق-سورية، 1979م.
- 16- مالك بن نبي: دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، دار الفكر: دمشق-سورية، دار الفكر: الجزائر، ط.1، 1412هـ-1991م.
- 17- مالك بن نبي: شروط النهضة، ترجمة: عمر مسقاوي وعبد الصبور شاهين، ط.4، دار الفكر، دمشق-سورية، 1425هـ-2004م.
- 18- مالك بن نبي: فكرة الإفريقية الآسيوية، ط.3، دار الفكر، دمشق-سورية، 1422هـ-2001م.
- 19- مالك بن نبي: في مهب المعركة، دار الفكر المعاصر: بيروت-لبنان، دار الفكر: دمشق-سورية، 1423هـ-2002م.
- 20- مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، دار الفكر، دمشق-سورية، ط.1420هـ-2000م.
- 21- مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر: الجزائر، دار الفكر: دمشق-سورية، ط.3، 1406هـ-1984م.
- 22- محسن عبد الحميد: المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري، كتاب الأمة، ط.1، قطر، 1404هـ/1984م.
- 23- محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984.